

منهج التأليف عند أبي العباس أحمد المقرئ

(986 - 1041 هـ)

أزهار الكمامة في أخبار العمامة نموذجاً

د. موسوي محمد

جامعة تلمسان

-الملخص:

المقرئ، الحفيد نموذج علمي من القرن الحادي عشر الهجري في امتزاج العلم بالعمل، والراح بالروح، وفي تلازم النداء والاستجابة.

"وأزهار الكمامة في أخبار العمامة" قيمتان في تأليفها:

الأولى، تكمن في شكلها، فالإمام أبو العباس أحرز فضل سبق ينظمه في موضوع العمامة، والثانية: قيمة تسجيلية تتم عن ظاهرة فريدة من نوعها وهي نبوغ المغاربة في فن السيرة والشماثل.

مما شجعني على الاشتغال بهذا الموضوع أن كثيراً من جوانب شخصية المقرئ الأدبية والعلمية ما تزال مغمورة على الرغم من باعه الطويل في شتى المعارف.

فمن تأليفه الأدبية - مثلاً - والتي لم تنل حظها من البحث أرجوزة "أزهار الكمامة في أخبار العمامة"، فموضوع هذه الأرجوزة أدب نبوي خالص، يذكر من خلالها ألبسة الرسول صلى الله عليه وسلم، وصفاً ومدحاً لا سيما عمامته صلى الله عليه وسلم التي صب عليها سيل مدائحه.

و أزهار الكمامة في أخبار العمامة في دراستي هاته ستعتمد تحقيقاً في المنهاج التألفي عند أبي العباس أحمد المقرئ .

1- التعريف بأزهار الكمامة في أخبار العمامة.

1-1 توثيق النص:

أنف التحقيق توثيق النص، ولذلك بادرنا إلى تأكيد صحة نسبة منظومة " أزهار الكمامة " إلى الشهاب المقرئ، فرجعنا إلى بعض مؤلفاته، ولاحظنا أنه عرض لذكر هذه الأرجوزة مرتين: المرة الأولى في إحدى إجازاته لتلميذه المولى الشاهيبي:

كذلك ما ألفت في عمامه من خص بالإسراء والإمامه

والثانية في إحدى رسائله لشيخه محمد بن أبي بكر الدلائي.⁽¹⁾

وتظل مقدمة الأرجوزة نفسها كافية للفصل في نسبتها إلى الإمام أحمد المقرئ. وانتفعنا كذلك بجملة من المصادر والمراجع، التي أشارت إلى هذه الأرجوزة، ومن نماذجها:

" نظم الآلي " - ميارة: 335.

" خلاصة الأثر " - للمحيي: 302/1.

" صفوة من انتشر " الأفراين: 74.

" أزهار البستان " - ابن عجيبة: 147.

" هدية العارفين " - إسماعيل باشا البغدادي: 157/1.

" إيضاح المكنون " - إسماعيل باشا البغدادي: 67/1.

" تعريف الخلف " - أبو القاسم الحفناوي: 49/1.

" إجازة الشيخ عبد القادر الفاسي " - ابن أبي شنب: 151.

" الزاوية الدلائية " - الدكتور محمد حجي: 116.

" أعلام الجزائر " - عادل نويهض: 42-43.

" تاريخ الجزائر العام " عبد الرحمان الجيلالي: 147/3.

" تاريخ الجزائر الثقافي " - أبو القاسم سعد الله: 28/2 - 29-226.

"الموسوعة المغربية" عبد العزيز بن عبد الله: 130/3.

"معجم المطبوعات المغربية" القيطوني: 330.

أما عنوان المنظومة، فإن تنوع صيغها لا يمثل أي عائق لأنها تظل مرتبطة بموضوع الأرجوزة وحرصاً على الضبط والأمانة قررنا اعتماد العنوان الذي سطره الشهاب المقرري في رسالته إلى شيخه الدلائي عام 1041 هـ بواسطة ابنه محمد الحاج حين مروره بالقاهرة لدى أوبته من الحج، والعنوان هو:

"أزهار الكمامة في أخبار العمامة"

ومن المهم أن نسير إلى أن "أزهار الكمامة" انتشرت في المغرب عن طريق شيخه الدلائي بعد "إضاءة الدجنة".

1-2) موضوع الأرجوزة:

قيض الله تعالى للمغرب طودة فحضت بفن السيرة والشمائل عبر القرون، ويمثل كتاب «الشفاء» للقاضي عياض لوحده عينا ثرة لا تنضب، فحق أن يقال: لولا عياض ما ذكر المغرب.

وقد أولى أهل هذا الفن اهتماما خاصا للباس النبوي، فلم يقصروا في تصنيف تواليف خاصة ببعض أنواع اللباس النبوي مثل العمامة، اعتمادا على أبواب اللباس التي تحفل بها كتب الحديث، ومن أشهر ما ألف في موضوع العمامة:

"كتاب فضل لباس العمائم" للإمام ابن وضاح القرطبي (ت 286 هـ) (2).

"كشف الغمامة عن أحكام العمامة" للإمام ابن طولون الدمشقي الحنبلي (ت 953 هـ) (3).

"ذر الغمامة في در الطيلسان والعذبة والعمامة" للإمام ابن حجر الهيتمي (ت 974 هـ) (4).

"تحفة الأمة بأحكام العمة" لابن الإمام (ت 1062 هـ) (5).

" الثمامة في صفة العمامة " للشهاب الخفاجي (ت 1069 هـ). (6).

ومن الطبيعي أن يشتغل الشهاب المقرئ وهو الإمام الحافظ المحدث التحرير بالتأليف في العمامة النبوية وبعض أنواع لباس الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ؛ وقد ألف أبو العباس المقرئ " أزهار الكمامة " في الحجرة النبوية. ولا نعرف بالتدقيق متى كان ذلك لأنه وفد على المدينة المنورة مراراً عديدة بين 1029 هـ و 1037 هـ

2- منهج المقرئ في " أزهار الكمامة".

التزم أبو العباس أحمد المقرئ في أرجوزته بمنهاج دقيق ومنظم يسهل معه حفظ المنظومة وتقريبها من المهتمين والدارسين. وتتكون " أزهار الكمامة " من الفصول التالية:

المقدمة

فصل في معنى العمامة واسم عمامة النبي صلى الله عليه وسلم التي كساها الإمام عليا رضي الله عنه.

فصل في ذكر بعض الأحاديث والآثار الواردة في العمام.

فصل في حكم لبسها وذكر جنسها

فصل في لوغها وكوفها سيما الملائكة عليهم السلام.

فصل في قدرها.

فصل في العذبة وإرخائها.

فصل في التلحي والتحنيك

فصل في ذكر الطيلسان والرداء والإزار وغيرها من أنواع اللباس النبوي

الخاتمة

وقد اعتمد المقرئ في نظم أرجوزته على ثلاثة أصناف من المصادر، وإن كان

الاختصار يفرض على الناظم في أحيان كثيرة إهمال عناوين الإحالات.

والأصناف هي:

أ المعاجم اللغوية.

ب كتب الحديث والسيرة والشمال.

ج كتب الفقه المالكي والشافعي.

فقد أبحر المقرئ في الخقل اللغوي على صحاح الجوهرى وقاموس الفيروز آبادى؛ واعتمد في علوم الحديث، الكتب الستة، ومسند الإمام أحمد، ومستدرک الحاكم، وكتاب الموضوعات لابن الجوزى، وفتح البارى لابن حجر العسقلانى. ومن مصادر السيرة التى رجع إليها الناظم كتاب الشفا للقاضى عياض، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية، وذر الغمامة لابن حجر الهيتمى، ومن المصادر التى يحنلنا عليها المقرئ فى الفقه كتاب المدخل لابن الحاج الفاسى المالكى، وتحفة المحتاج لابن حجر الهيتمى، وإحسان التحرير لشيخه عبد الرؤوف المناوى القاهرى وبغض النظر عن هذه المصادر، نرى لزما علينا التذكير بأن أهم مصدر هذه المنظومة هو "أزهار الكمامة" فى أصلها الأول.

وأما عن القيمة الأولى لأزهار الكمامة، فإنها تكمن فى شكلها فالإمام أبو العباس أحمد المقرئ أحرز فضل سبق بنظمه فى موضوع العمامة وبعض لبس النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يحل الاختصار وهو اللائق بالمنظومات دون إزاحة المقرئ الغمم، وإنارته الغياهب وبلوغه ما أمله.

ولهذه الأرجوزة أيضا قيمة تسجيلية. فهي تقرئنا من شخصية الإمام الحافظ المحدث الفقيه الأديب وجاحظ البيان، بل وحتى من عصره، فقد أودع الناظم "أزهار الكمامة" مسائل لغوية ونحوية وحديثية وفقهية وعقدية تشهد بتمكنه من العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، بل وتنم عن ظاهرة فريدة من نوعها،

وهي نبوغ المغاربة في فن السيرة والشمائل، وعموما يمكن القول بأن تأمل كل فصل من فصول "أزهار الكمامة" يجعلنا نقرّ بأن الإمام المقرّي جمع فأوعى رتّل فأرعى.

ومن معالم التزام المقرّي منهاجا دقيقا، أنه يصب عنى الموضوعية ويحرص على تفادي الأحكام التي لا طائلة من ورائها، فأمام مسألة تحسيم ابن تيمية للذات الإلهية يقول المقرّي:

ونجعل تيمية أبدى فيــــه قولا وبعض الناس يصطفيه
والبعض لا والأصلح التسليم وفوق كل عالم عليهم

3- المنطلقات والامتدادات المعرفية لأدوات المقرّي المستعملة في " أزهار الكمامة وأخبار العمامة " .

3-1 أداة الأسانيد:

أ- روايات المقرّي لصحيح الإمام البخاري: وقد أحصيت له أكثر من ستة عشر متصلة بالبخاري عن طريق عمه الإمام أبي عثمان سعيد المقرّي (1022 هـ)، الحضرة التلمسانية ستين عاما⁽⁷⁾، وعن طريق الإمام القصار (1012 هـ)⁽⁸⁾ وعن طريق الإمام ابن القاضي (ت 1025 هـ)⁽⁹⁾، وعن طريق الإمام أحمد بابا السوداني (1036 هـ)⁽¹⁰⁾.

ب- روايات المقرّي لصحيح الإمام مسلم: وهي تجاوز العشرة. وهكذا يتصل أبو العباس المقرّي بالإمام مسلم عن طريق عمه سعيد المقرّي⁽¹¹⁾ والقصار⁽¹²⁾ وأحمد بابا السوداني⁽¹³⁾.

ج- روايات المقرّي لسنن الترمذي: وهي تضاهي العشرة وتتصل بالترمذي عن طريق أبي عثمان سعيد المقرّي⁽¹⁴⁾ وأحمد بابا السوداني⁽¹⁵⁾.

د- روايات المقرئ لموطأ الإمام مالك: بواسطة الإمام القصار⁽¹⁶⁾ وابن القاضي⁽¹⁷⁾ وأحمد بابا السوداني⁽¹⁸⁾.

هـ- رواية المقرئ لمسند الإمام أحمد بن حنبل: لقد أشار في إحدى إجازاته إلى روايته مسند الإمام أحمد، ولكنه لم يذكر رجال سنده.

و- رواية المقرئ الأربعين النووية بواسطة عمه سعيد المقرئ⁽¹⁹⁾.

ز- روايات المقرئ لأمهات المصادر الشرعية: ومن نماذج ذلك رواياته لكتاب الشفا للقاضي عياض عن طريق أحمد بابا السوداني⁽²⁰⁾، وسعيد المقرئ⁽²¹⁾ ورسالة بن أبي زيد القيرواني بواسطة القصار⁽²²⁾، ومختصر بن الحاجب الأصل والفرعي عن طريق القصار⁽²³⁾، وتصانيف الإمام البيضاوي بواسطة القصار⁽²⁴⁾ وجمع الجوامع لتقي الدين عبد الوهاب السبكي وجميع تصانيفه عن طريق القصار⁽²⁵⁾ وكتاب أحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي وبواسطة القصار⁽²⁶⁾ وفهرسة ابن غازي وجميع تأليفه عن طريق ابن القاضي⁽²⁷⁾، وفهرسة ابن حجر العسقلاني بواسطة ابن القاضي⁽²⁸⁾ ومصنفات أبي الفضل الزين العراقي عن طريق ابن القاضي⁽²⁹⁾ ومختصر سيدي خليل ابن إسحاق المالكي وجميع مصنفاته بواسطة ابن القاضي⁽³⁰⁾ وأحمد بابا السوداني⁽³¹⁾ وعقائد السنوسي عن طريق عمه سعيد المقرئ⁽³²⁾.

3-2: الإمدادات المعرفية:

إذا نحن تأملنا أساتيد الشهاب المقرئ في الحديث، فإننا نستنتج بأن طرقها تنتهي باعتبار ما وقفنا عليه إلى طائفة من أعيان وأئمة الحديث في المغرب فأمثال ابن غازي العثماني المكناسي (919هـ) وسعيد المقرئ (1022هـ) وأحمد بابا السوداني (1036هـ) لم يكونوا فقط مشاركين بل هم أئمة هذا الفن الشريف؛ وكانت لأبي العباس أحمد المقرئ مجالس مشهورة في الحديث في

المغرب والمشرق، وبلغ في تدريس الخامع الصحيح للإمام البخاري شأوا كبيرا جعله يشارك شيخه القاضي الغساني في شرحه بجامع القرويين⁽³³⁾ وقد جمع عل الشهاب الحفاجي مناقب أبي العباس المقرئ في الحديث فأوعى بقوله: "بوآء الله في الحديث تكربة بين العليا والسند"⁽³⁴⁾، وأما الامتداد الثاني فمتعلق بالدائرة الفقهية فقد كان يضاف إلى شخصية أبي العباس أحمد المقرئ وصف "الفقيه" "المفتي" وفي ذلك دلالة مهمة على ثقافته ومعرفة الفقهية، وهو ما تجليه منظومة "أزهار الكمامة" فتقافة المقرئ الفقهية لا تقتصر على ثقافته بجهابذة الفقه في المغرب أو على الدرس والتأليف والأسانيد، بل تتجاوز كل ذلك إلى أحكامه وفتاواه التي أودعها تواليقه؛ ولكن المهم في دراستنا هو الإلحاح على أن امتلاك المقرئ للأدوات اللغوية والبلاغية وإتقانه للكتابة - وهو الذي امتزج فيه الأدب باللفظ امتزاج الماء بالخمير⁽³⁵⁾ تمثل كلها بعض أسس رسوخ المقرئ في العلوم والفنون ولا نشك في أن توظيف المقرئ لثقافته الأدبية واللغوية من أسباب ذيوع صيته في شتى الأمصار فأين ادعاء كراتشكوفسكي افتقار المقرئ للأصالة والذوق الأدبي والمهارة الإنشائية⁽³⁶⁾، مما قاله أبو سالم العياشي في خطبة "نفع الطيب": وقد أجاد في خطبته غاية وجمع فيها من علوم البلاغة ما سدر العقول فلا يمل سامعها سماعها مع طولها لما اشتملت من النثر الرائق والنظم الفائق.⁽³⁷⁾

ولا جدال في أن إتقان المقرئ صناعة "أزهار الكمامة" مبني ومعني، يمثل معلمة أخرى لتجربته الأدبية. فهو سبق أن نظم في الحنين والشوق وفي الوصف والإخوانيات؛ ولكن غالب شعره في المديح النبوي بالإضافة إلى القصائد التي كان ينظمها موطئا لقصائد بعض الشعراء وخاصة من المغاربة، والأندلسيين⁽³⁸⁾. وقد وصف الشيخ ابن عبد الله الرحمن الوارثي الصديقي القاهري⁽³⁹⁾ قريحة

المقري الشعرية بقوله: "شهدنا بأنه زهير الزمان ونابغته، وفنن الأوان ونادرتة بل لو كان ليبيد في عصره لقطع إليه الفدا فدو البيد، أو طرفه بن العبد لقال هذا هو الطرفة وأنا المرید، أو هذا ليبيد وأنا من العبيد"⁽⁴⁰⁾ وقال في موضع آخر: "هو منطق الزمان وفخره"⁽⁴¹⁾

وقال فيه تلميذه تاج الدين المكي المالكي (1066هـ): "إن نظم أدري، بعقده الجمان والثريا...وله منظوم أرق من الدمع".⁽⁴²⁾ وأما الشهاب الخفاجي فيقول فيه: "هو أجمعي باديته، وسلمان بيته، وحسان فصاحته فما مس قضت الأقلام إلا سجدت شكرا إذ رأته قبلة الآمال، وأقسمت أن من البيان لسحرا، لكنه السحر الحلال".⁽⁴³⁾

ومما يرتبط بصناعة المقري الأدبية واللغوية إتقانه للصناعة التاريخية، ولا غرابة يعتمد الشهاب المقري في كتاباته التاريخية على مصدرين مهمين هما:

أ الشعر والوصايا والخطب والرسائل.

ب الحكاية والقصص والأمثال والنوادر⁽⁴⁴⁾

ولهذا إذا كان أبو العباس أحمد المقري في دائرة العلوم الشرعية واضع طراز سند الحديث وراياته وكشاف أسرار التزويل ومحكم آياته... والمنشئ الذي إذا تفقه أعبى مالكا جدلا، والفقيه الذي إذا أنشأ أو أنشد حرك السواكن جدلا⁽⁴⁵⁾ فهو في اللغة والأدب فارس حلبتهما. وقد لخص أحد الأعيان شخصية المقري الإبداعية وتأثيرها في الساحة الثقافية في قوله:

بحره الوافر بالعلم طما	كامل الأمداد لم يحتبس
نال منه الناس حتى عمما	مشرقا والعرب للأندلس ⁽⁴⁶⁾

إذا كانت سبيل الخوض قد ذلت للمقري الخوض في مواضيع وفنون شتى فلائنه يمزج بين أدوات منهجية متنوعة تلتقي كلها في الموسوعية التي طبعت ثقافة

القرن الحادي عشر الهجري مغربا ومشرقاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

- الهوامش :

- (1) نفع الطيب: 425/2
- (2) الدعامة في أحكام سة العمامة / سيدي محمد بن جعفر الكتاني. 2
- (3) هدية العارفين: 286/2 إيضاح المكنون: 242/2.
- (4) نظم اللآلئ ميارة 341. نزهة الأنظار الحسين الورتيلاني: 426.
- (5) روضة الآس / المقرئ 323 - 324. نزهة الأنظار: 426
- (6) روضة الآس 295.
- (7) روضة الآس 306 - 307 - 310 و نظم اللآلئ 341.
- (8) نفع الطيب المقرئ 438/2 نظم اللآلئ 341 و نزهة الأنظار: 426
- (9) روضة الآس: 324 نفع الطيب 429/2 و نزهة الأنظار 426
- (10) روضة الآس: 307 - 308 - 309. و نظم اللآلئ: 341
- (11) روضة الآس: 310
- (12) روضة الآس 323 - 324 - نفع الطيب: 429/2
- (13) روضة الآس: 292 - 294.
- (14) روضة الآس: 309.
- (15) نفع الطيب: 429/2
- (16) أزهار الرياض / المقرئ: 341/4 روضة الآس: 310 - 311
- (17) أزهار الرياض: 339/4 - 342. تعريف الخلف / الحفناوي: 25/2
- (18) روضة الآس: 327
- (19) المصدر نفسه 327
- (20) المصدر نفسه: 327
- (21) - روضة الآس: 328.

- (22) المصدر نفسه: 329
- (23) روضة الآس: 296 و فهرس الفهارس / عبد الحفي الكشانة: 575/2.
- (24) روضة الآس: 296 و فهرس الفهارس: 575/2
- (25) روضة الآس: 297.
- (26) روضة الآس: 297.
- (27) المصدر نفسه: 305
- (28) إضاءة الأجنة / المقرئ: 102.
- (29) نظم اللآلئ: 334 - 335 الحركة الفكرية في عهد السعديين / الدكتور محمد حجي
- 30/ 367 - 368 أعلام المغرب العربي / عبد الوهاب بن منصور: 149/2.
- (31) ربحاته الألبا / الشهاب الخفاجي: 175/2 .
- (32) المصدر نفسه: 174/2.
- (33) الأدب الجغرافي العربي: 824.
- (34) الرحلة العياشية / أبو سالم العياشي: 177/2.
- (35) نفخ الطيب: 437/7.
- (36) المصدر نفسه: 440-439/7.
- (37) فتح المتعال المقرئ: 401.
- (38) نفسه: 406.
- (39) ربحانة الألبا: 175.
- (40) النقد الأدبي في نفخ الطيب / الأستاذ زهدى شوكة بهنان: 83.
- (41) فتح المتعال / المقرئ: 410.
- (42) نفخ الطيب: 82/7 - 86.